هل يسمع رجال الجامعة المصرية ؟

الموسوعة العربيـــــــة

آراء جليلة لداعية من دعاتها

الدكتور أحمد فريد رفاعى

مدير المطبوعات الاسبق

قد يكون من واجب (المعرفة) أن تجعل بواكير بحوثها فى تكوين الموسوعة ، صادرة عن لسان ذلك الرجل الحصب العقل ، اللبق الكيس والباحث المحقق الاستاذ الدكتور احمد فريد رفاعي ، الذى تخرج على أكتاف (صاحبة الجلالة) وانتهى الى صميمها من يفاعه الي دخيلة شبابه الي آخر مرحلة من هذا الشباب — أعنى الى اليوم — فقد عرفناه كاتباً فذاً فى : الجريدة ، والمحروسة ، والمؤيد والاخبار ، والمقطم ، والاهرام ، ومصر ، وفى عشرات أخرى غير هذه الزميلات . ثم عرفناه بعد ذلك صاحب (المأمون) وحسبك هذه الصحبة التي احتمل منها ما يحتمله العالم الجهبذ من جلال الاحدوثة ونباهة الصيت ؟

المحرر

سألت صديقى الدكتور رأيه فى الموسوعة العربية وخرجت منه بهذا الجواب القيم الذى مهد له بقوله :

تخلق الموسوعة العربية لها فى هذه الفترة دعاة يهتمون بها ويدعون إليها ، ويفزعون فى ذمة تكوينها من رأى إلى رأى ، ومن فكرة إلى فكرة . وليست الموسوعة العربية بالأمر الطارىء ، ولا بالفكرة الحديثة ، حتى يكون الحديث عنها جديداً يقتحم الآذان ، ويفجأ الأذهان... وإنما هى فكرة درجت مع التطور الذى لابس وجوه النهضة العربية ، والذى احتملته النهضة المصرية بنوع خاص .

وقد يكون من حق الدعاة علينا أن نحمد إليهم ذلك الجهد الذى يبذلونه ، وهذا اليقين الذى يفعمهم إيماناً بالمضى ، وإيماناً بالأمل ، وإيماناً بالنهاية التى تستقر عندها أطماعهم ، وقد بلغت فى مراحل التوفيق غاية الشأو — قد يكون من حق اولئك الدعاة أن نحمد إليهم ذلك الجهد وهذا اليقين ، وان نذكر لهم ماتوجهوا به من رأى سديد ، وقول رشيد ، وفكرة موفورة التوفيق .

أول صوت رسمى دعى إلى الموسوعة

على أننا نتوجه بالموسوعة العربية وفكرتها إلى مدى بعيد ، وعهد قد يتقبله بعض دعاتها على أنه بداءة الهتاف بها والتفكير فيها ، وقد يتقبله البعض الآخر على أنه إغراق فى

التوجيه ، وإسراف فى تسجيل يوم المولد، ولكننا نرى أننا حين ندفع بالموسوعة العربية إلى تاريخ يتقدم تاريخها الحديث ، فأنما يدفعنا إلى ذلك الضن بضياع حلقة من حلقاتها ، وخطوة من خطواتها ، وإنما يدفعنا إلى ذلك الحرص على ان يكون تاريخها متسقاً منسقاً ، بعيداً عن ملابسة الريب والظنون ... وما من ريب فى ان القارىء ستهزه هذه الحقيقة التى أذيعها عليه هزاً ، لأنها قد احتملت معها رأس رجل طالما نصح الشرق بالخير ، وكثيراً ماتعهده بالضوء الباهر ، يزدلف فى سنا بهره إلى مواضع النجاة ، ويختلف فى فتنة لألائه إلى مواطن التوفيق ، خالصا من لوثة الضلة وشائبة التيه .

كان هـذا الرأس المتوقد الذهن ، الصـافى النمير المستنير ، هو رأس المرحوم عبد الخالق ثروت باشا ... واى رجل كان ثروت باشا ؟ إنه السياسى فيما يعرف الكافة وفيما تنصح عنه ظواهر حياته ، ولكنه ـ يرحمه الله ـ كان الأديب المفكر الذى استوثق من صلته بكتبه، والذى استوثقت هذه الكتب من آصرتها به ، وعهدها معه حينما كان ـ وكثيراً ما كان ـ يستنفد فى صحبتها الليالى طويلة مراحلها ، والأيام بطيئة خطاها ... ولست بمحدثك ياصديقى عن علاقتى بالفقيد ، فقد كنت له الطيف والصدى ، وكان لى الظل والنهى ، وكنا فيما يحدس الناس لاتجتمع صلاتنا إلا بين ألياف ذلك اللقب المتواضع « السكرتير الخاص » على ان الفقيد ـ يرحمه الله ـ كان يسمو بهذه الصلة عن مستواها المألوف ووضعها المعروف، لأن نفسه العالية كثيراً ماكانت تنفذ إلى الصميم لتدرك ما أهجس به ، وما أضن على فى بالافصاح عنه .

ولقد كانت الموسوعة العربية واحدة من هجسات النفس ولمحات الحس، وكان التفكير فيها وليد آراء طالما امدنى بها الفقيد ، وطالما اخذناها على ضوء الحقائق ، يجلوها كلانا بفكره، ويصورها بريشته ، ويدافع عنها بعيداً عن ضجيج المتفرجين ، وصخب الألسنة ، حتى إذا مااحتملنا ميراثها ، وسحقنا اغلالها ، وأصرناها فكرة جديرة بالذيوع ، خليقة بالمضى فى غمرات البحث ، كان من شأن الأقدار أن مدتنا بالظفر ، ووفرت علينا أسباب النصر ، فقد تقلد الفقيد منصب الرياسة فى وزارته الأولى عام ١٩٢٢، وأقام على أريكة المعارف ذلكم الرجل، الحق الرجولة، السرى النفس ، مصطفى ماهر باشا .

ولقد تمثلت شواغل الفقيد فى صوالح الدولة، حينما اضطلع بها فى هذه المرحلة الحرجة من مراحل الكنانة، فأيقنت أن حديث « الموسوعة » قد حقت عليه كلمة الموت ، وقد أصابته السياسة واحداثها بالضربة القاضية ، والعاصفة التى تذرى به فى مدارج الريح ... ولكن الفقيد العظيم كان من هذه الطائفة التى لاتقنع بالسبح فى لجة واحدة .. مهما تكن هذه اللجة شديدة النوء مروعة الأعاصير، فقد فاجأتنى منه دعوة إلى العمل، وأى عمل..؟ أجل، لقد رغب إلى أن أضع له مذكرة، أو مانسميه «تقريراً» عن الموسوعة العربية، ليقدمها إلى زميله مصطفى ماهر باشا وزير المعارف..!

وهنا علمت كل شيء . . . علمت أن المغفور له ثروت باشا، لم يكن فى تفكيره خلق « الموسوعة العربية » رجلا يساير حالة الزمن الطارئة ، حتى إذا ما تحورت به خرج عن طوق أفكاره السوالف . . . علمت أنه أذاع هذه الفكرة على ماهر باشا ، وأن ماهر باشا تقبلها فى نسقها الذى أذيع عليه ، ولكنه أراد أن يمضى بها فى طريقها « الرسمى » فهو يأمل فى رئيسه أن يزوده بتقرير يضم أشتاتها ويسجل ميزاتها .

ولقد كان من حظى أن أنتهز الفرصة السانحة، فكتبت التقرير وافياً ، وزودته بما كان الفقيد قد فكر فيه ، وما كنت قد ارتأيته فى صدد الموسوعة المرتجاة.

على أن طبيعة البطء التى تتسم بها الحكومات فى تحقيق المآرب والأحلام قد لابست هذه الفكرة الرشيدة ، فأسلمتها إلى رقاد بغيض .

ولئن دلت هذه القصة على شيء فانما تدل دلالة صريحة على أن صوت المغفور له عبدالخالق ثروت باشا كان أول صوت «رسمى» دعا إلى خلق الموسوعة العربية ، كما كانت يراعة صديقك ـ دون زهو أو فخار ـ أول يراعة سجلت هذه الفكرة وارتفعت بها عن مستوى الهمس .

وتلك كلمة للتاريخ بعيدة ، فيما أرى ، عن أن يتسلمها متقول ، أو يعقب عليها بالبخس قلم رشيد ...

تاريخ

إننا نطلب تكوين الموسوعة ، وندعو إلى ذلك فى إلحاف وإلحاح ، لا لأنها تسد نقصا معيبا ، ولكن لأننا نقلد بها أوروبا . وما من ضير يصيبنا حين ندعو إليها ونهتف بها ، ولكن الضير كله أن تكون لنا فى تكوينها طفرة تباعدنا عن السداد، فلم تكن تلك الصور الكاملة ـ أو القريبة من الكمال ـ التى نشاهد عليها حال أوروبا اليوم بنت يومها ، ولم تولد بهذا الكمال الذى تستبدعه لحياته ، وقيم منتجاته ، وكذلك لم تكن القاطرات ، ولا الأسلاك البرقية ، ولا العالم اللاسلكى ، أو الكهربائى ، أو الصناعى ، أو العلمى ، أو الاجتماعى ، الذى تأخذنا روعته ، ويدر علينا بأخلاف نعمه ، ورغد إسعاده ، وليد يومه وأمسه ، ولم يدرج من حجر أمه ، يافعاً فتياً قوى الأسر ، عبل الساعد ، متين البنيان . كلا . . . فأن علينا أن نرجع إلى الوراء ، وإلى الوراء القريب ، ثم إلى الوراء البعيد ، علينا أن نرجع إلى عصر النهضة فى ايطاليا ، عصر البعث العلمى ، أيام (آل بديسى) وغيرهم ، ثم تتدرج إلى آثاره فى مختلف الفنون، ومناحى الحياة ، من أدب وشعر ، ومن فن وعلم ، ومن سياسة واجتماع ، وأن تنظر إلى آثاره ومنتجاته لا فى إيطاليا فقط حيث : (بوكاتشو) و (دانتى) وأضرابهما بل انظر أثره فى فرانسا ثم فى المانيا : ثم فى انجلترا ، واذكر (بوتنبرج) (ومارك لوثر) و (لوك) و (جون نكس) و (ايرلسميث) ومن إليهم من دعاة الأصلاح الدينى والفلسفى

والاجتماعى ، ومن مخترعى الطباعة ، ورجالات الفنون الجميلة ، ومن زعماء العلم والاستنباط فى العوالم العلمية جميعا .

وليس من شك فى أن هذه النظرة السطحية تصور لنا فى بساطة وجلاء ، كيف تكونت المدنية الغربية ـ أستغفر الله ـ بل كيف تطلبت من زمن اقتضته سنة الارتقاء ، ولم تكن عقباتها كعقباتنا ، لأن ذخائر تلك الأمم العلمية أو الادبية ، قد تكاتفت وتساندت وتآزرت الواحدة مع الأخرى فى إيجاد الوحدة التعليمية ، أو وحدة الثقافة ، لسبب وحدة الأصل اللغوى من لاتينى و يونانى .

جهود تدعو إلى التأمل

لقد صورت لنا وثبة الفقيد العظيم المغفور له ثروت باشا أننا فى حاجة وحاجة ماسة إلى موسوعة ومعجم ، ولقد كانت الوثبة الجديدة التى طفرت إلى الآفاق من أمد غير بعيد ، باعثا لنا على أن نتلمس حاجتنا إليها مرة أخرى ، ولقد يبدو تكوين الموسوعة بعدئذ أمرا لا أمل فيه ولا رجاء .

ولكنى لست أرى المستقبل مظلما قاتما رحيب الكآبة فياض العبوسة ، فأن أفرادا من أولئك القادة الذين انتهت اليهم زعامة الشرق العربى فى عصور بعيدة ، وأجيال سالفة ، قد استطاعوا ـ كل واحد بمفرده ـ أن يبدعوا لنا فى « الموسوعات » نهجا ليس علينا إلا أن نتأثره ونحتذيه حتى نبلغ بها قنة الكمال ، وما أدرى حين أذكر لك (الأوراق) و (المنظوم والمنثور) و (طبقات ابن سعد) و (أسد الغابة) و(الأنساب) و(النجوم الزاهرة) و(الأغانى) و(معجم ياقوت) ومئات أخرى غير هذه الكتب التى تعرفها حق المعرفة ، والتى وضعها مؤلفوها وضعا محكما دقيقا ، وسجلوا أشتات بحوثها وشخصياتها على حروف المعجم ، والتى لقى الضوء بعض منها فى القرن الثالث الهجرى ـ ما أدرى حين أذكرها لك ، أى أثر تخلقه فى نفوسنا حالة القعود التى تجثم على صدورنا ولا نفتح من مغاليقها .. ؟ إنه دون ريبة لأثر بغيض إلى اللسان ذكرانه ، وإلى القلم تبيانه ، لأنه يصور لنا عقولنا وقد محلت وأجدبت حتى لتهوى بالطامة الكبرى على رءوس اولئك الذين اقترحوا علينا ـ من أمد ـ أن نقتصر فى تكوين « الموسوعة » على ترجمة دائرة المعارف الأسلامية ، فهى فى زعمهم غنية لنا عن أثقال البحث والنحت والابتكار .. ! ألست ترى معى ان هذا الرأى لسخفه قد هوى على نفسه من الضعف والهوان ؟

جامعتان :

تسألنى الرأى فى تكوين الموسوعة فاسمع إذن :

إن عندنا جامعتين : جامعة أزهرية ، وجامعة مصرية ، تعنى الأولى بالدينيات وما يتعلق بها من الثقافات ، وما أراها ـ على الرغم مما يتلقفها من نقدات ومطاعن إلا المعهد الاسلامى العالمى ،

وإن كنت أطمع هنا أن تعنى تلك الجامعة بدراسة اللغات الشرقية الاسلامية لتكون شديدة الصلة وطيدة العلاقات بالعالم الاسلامي: كالترك والأفغان والهند وفارس وما إليهن من دول إسلامية لا ينطق أهلها الضاد، فإني أرى إلى ذلك إلمام رجالات الدين، أو تخصص بعضهم في هذه اللغات أو بعضها، ففي ذلك توحيد للثقافة الاسلامية وعمل على توسيع العلوم الاسلامية واللغة العربية الصحيحة، والنهوض بالعالم الاسلامي نهوضاً علمياً يقف على أرجله، ويمشي في قوة وحياة لائقين بالقرن العشرين.

ما علينا... أقولها لك ياصديقي في لوعة وأسى. لأن جامعتي (اكسفورد) و (كامبردج) بل كل الجامعات في اوروبا تدرس اللغات الشرقية، بل يدرس بعضها فروعاً في العلوم الاسلامية كالقراءات مثلا، ونحن هنا.. ! ماذا أقول لك. ؟ لا شيء، فالاسلام بخير، ومصر أم الدنيا، أليس كذلك يا استاذ ؟

هل تسمع الجامعة المصرية ؟

قلت لك: عندنا جامعتان: إحداهما للدينيات، والأخرى.. ماذا أسميها ؟ قل إنها للعصريات.. أليس معقولا ـ ونحن في صدد الموسوعة ـ ان تؤلف عدة لجان: عشرة، عشرون، مائة، فلا يهمني الكم ولا العدد، وإنما يهمني الانتاج، وإنتاج الجماعات خير من شقشقة خيال الفرد، وطول لسانه، وخلب وعوده، وأنا ممن لا يهمهم القال، والذين يهمهم المقال، وممن لا يخلون بالجاه، ويخلون بالانتاج، وممن لا يخدعهم الأناء، بل يطلبون الماء.

لتؤلف اللجان إذن: الفقهية من رجال الفقه، واللغوية من رجال اللغة، والأدبية من رجال الآداب، والكيميائية من رجال الكيمياء، والطبية من نطس الأطباء، والقانونية من جهابذة القانون، والهندسية من أفذاذ الهندسة، والزراعية من رجالات الزراعة، ولتعمل كل في الدائرة المخصصة لها عملا إنتاجياً متواصلا، ولا غضاضة علينا ـ إلى جانب جهودنا المحلية، وما ستقوم به تلك اللجان من جمع وترجمة وتأليف ـ أن نمد إليها بعض المستشرقين، وأن نشرك من نشاء ـ او تأبى كفاءته العلمية إلا أن نشركه من علماء الشعوب الاسلامية المجاورة، ثم إلى العمل فنعمل، ثم نعمل، ثم نعمل، لنجمع ما نعمل بطريقة (الاندكس كار) أو نظام الفهارس الأبجدي.

رابطة العلماء

وبعد فأني مقتحم بك ياصديقي أبواب فكرة جريئة، ولكني أرى فيها الخير جم الخير، وأرى أن الضن بها يثقل صدري إثقالا... أرى ألا يترك أمر الموسوعة بين أذهان رجالات الجامعة وحدهم، ولا بين أذهانهم صحبة طائفة من عقول العلماء الشرقيين والمستشرقين فحسب، وأن لا تكون الحكومة من السيطرة والهيمنة على أشخاص الذين يؤلفونها بحيث تولي مقاليدها من تشاء، لا من يشاؤه العلم والعمل.

لا أنكر أن فى الجامعة أساتذة أجلاء ، وأن فيها شخصيات بارزة ، لها خطرها وأثرها ، فهنالك : على ابراهيم ، وطه حسين ، ومنصور فهمى ، ونجيب محفوظ ، وسليمان عزمى ، وعبد العزيز اسماعيل ، وحسبك بهم من قادة لهم نباهة الذكر والصيت البعيد ، لا أنكر أن فى الجامعة هذه الشخصيات وأشباهها ، ولكنى أرى أن تركيز اللجان فيها واقتصارها عليهم ، خطر أوفر الخطر ، لا بالموسوعة وحدها ، بل بكل عمل يمت إلى العلم ، ويتصل أثره بالعلماء .

أريد أن أقول : يجب أن ينظر حين تأليف اللجان — سواء أكانت فى هذا العمل أو فى غيره — نظرة حرة طليقة ، لا يحدها شىء إلا التقدير العلمى ، وإلا الرغبة فى الاستفادة من العقليات البارزة ، سواء أكانت ، فى صفوف الحكومة ، أو خارج الجو الحكومى .

وإنى أتساءل : لماذا لا نستفيد من علمائنا الأحرار ؟ ونحن نعلم أن كثيراً من الرءوس المفكرة المبدعة تأنف الجو الحكومى ، ولا تتنفس إلا فى الهواء الطلق ؟ وما معنى العباقرة ؟ أليسوا هم صنفا من الناس أكثر مستوى من الجموع ، فخرجوا بمقتضى عدم مساواتهم — لا فى الكثير ولا فى المدنية العلمية والعقلية — عن جمهور العلماء الحكوميين ؟ فلماذا اللجان ؟ أو المشروعات العلمية ؟ وهى ملك للعلم وللامة وللاجيال القادمة ، لا للحزبية الوقتية ؟ لماذا نحرم هذه اللجان من أمثال : كردعلى ، أو هيكل ، أو العقاد ، أو شوقى ، أو فريد وجدى ، أو زكى باشا ، أو المراغى ، أو خليل ثابت ، أو الرافعى ، أو رشيد رضا ؟

تقاليد يجب القضاء عليها

لا أدرى لماذا يحرم أولئك الذين ذكرتهم لك من اللجان الحكومية التى تؤلف للسير بحياتنا العلمية إلى اتجاه يساير طبيعة العصر الحاضر .. ولكنى أدرى ياصديقى : أن هنالك تقاليدا تعهدتها الحكومات — أو بعض منها — بالرعاية ، والرعاية على طول الطريق ... أما هذه التقاليد . فمن دستورها النافذ حرمان العقل الخارج عن جدران الحكومة من العمل ، عملا تقره الحكومة ، وإنى ذاكر لك مثلا :

حينما عدت من تمثيل الحكومة المصرية فى مؤتمر الصحافة الدولى ، كنت مكلفا — مع زميلى الأستاذ حسن فهمى رفعت بك — بالتجوال فى فرانسا وانجلترا وألمانيا وإيطاليا ، لدراسة النظم الحديثة الخاصة بالتمثيل والسينما والصحافة والمطبوعات ، وقد تقدمت إلى وزارتى الداخلية والمعارف بطائفة من المقترحات ، أذكر منها ماتقدمت به إلى وزارة الداخلية خاصاً بما أسموه لجنة الرقابة الأدبية التى تراقب أشرطة السينما والأغانى والروايات ، فبينما قلت لها : إن انجلترا مثلا ، تتبع رقابة الروايات إلى ديوان كبير الأمناء ، لأنها ترى أن الملك هو الراعى الأول للاداب ، اذا بنا نتبعها إلى إدارة الأمن العام ، وهى إدارة خلقت لمراقبة الاجرام كما تعلم ! وهناك يقرأ

الروايات عالم من علماء النقد الذين يشار إليهم بالبنان ، وهنا يقرأها موظفون ظهورات – من غير طعن فى أشخاصهم ، ولا فى أقدارهم – فهم زملاء الأمس ، وهم لى اصدقاء .

وبينما قلت : إن إيطاليا مثلا – ألفت لجنة رقابة الأشرطة السينمائية من قاض قانونى ، وأديب ، ومؤلف ، وفنان ، ورب بيت ، أو ربة بيت ، وواحد من رجال الأمن ، بينما اقترحت أن يؤلفوا لجاننا على هذا النحو ، ويلبسوها ذلك الثوب ، إذا بالحكومة تخرج اللجنة من رجال الأمن العام وحدهم جريا وراء السياسة الحكومية فى تأليف اللجان ، فكانت فى تأليفها خارجة عن طبيعة مهمتها .

تلك هى التقاليد ، أذعت لك من مثلها مثلا ، وما أحسب إلا أن فكرة الموسوعة قد جاءت فرصة سانحة نستطيع فى صددها أن ننظر إلى الكفاية التى وجدت فى الخارج كانت أم فى الداخل فى الحكومة ، أم بعيداً عن جدرانها ، وأن ننظر إلى المصلحة العلمية – والمصلحة العلمية فقط – تلك المصلحة التى يجب أن تسمو فوق الحكومات ، وفوق مايتصل بها ، وفوق الألوان السياسية ، والشهوات الحزبية ، حتى يكرس ما للعلم للعلم ، وحتى يعيش ما للفن للفن .

آمال... هل تتحقق؟

ثم استطرد الدكتور يقول : لقد استعرضت لك ياصديقى جمهرة من الآراء التى كونتها عندى فكرة « الموسوعة » ولقد أفصحت لك عنها فى جلاء ، وفى غير لبس ، وقد يفهمها بعض الباحثين على أنها دعوة حارة إلى اليأس ، ولكنى وقد ذكرت لك جهود أفراد من قادة الشرق العربى فى عهود سالفة ، أنت بها جد خبير ، لا أستطيع إلا أن أحمل نفسى على الأمل – بعض الأمل – فى أن ندفع عنا عبء عار فادح .. أليس حقاً علينا أن نخجل من جهودنا الكلامية اليوم ، وجهود أبائنا العملية فى الأمس ، فجهودنا سلبية ، بل هى جامدة جوفاء ، وجهودهم إيجابية فيها الكفاية والغناء ؟ بل أليس مدهشاً أن نجد معاجم خاصة لتعابير (شلرى) وأخرى للغة (شكسبير) وثالثة ورابعة لغيرهما وغيرهما من كتاب العالم الأوروبى ؟ بل أليس مدهشاً أن نجد فى لغة العرب معاجم لكل شىء ، وكل فن ، بينما نحن نتحدث دائماً ونتحدث عن الموسوعات والمعاجم ، حتى إذا ما جد الجد ، تسلل المتحدثون لواذا ، ومن ورائهم كلمة واحدة .. . عليكم السلام ورحمة الله .

ذلك هو رأيى أبنت لك عنه ، فى غير ما مواربة أو إنكار ، وكل الذى آمله أن تدرسه وأن تذكر رأيك فى « المعرفة » أيضاً (١) فأمر الموسوعة ليس أمراً هيناً و « المعرفة » ببحثه والتمهيد له أحق وأجدر .

---

(١) أشكر صديقى الفاضل الاستاذ الدكتور فريد رفاعى على هذه الثقة الغالية وأرجو – صادقا – أن يعلم أنه لم يترك بعده لقائل قولا ، ولا لكاتب رأيا ، على أننا نعرف أستاذنا رأفا – منذ الساعة – نفسح المجال لحضرات الكتاب الذين يتفضلون ببحث هذا الموضوع الجليل ، وقد نعود – فى فرصة أخرى – للكتابة عنه ، استنهاضا للهمم وحفزاً للعزائم ، أما الآن فقد حرمنا صفحاتنا المخصصة لنا حرصاً منا على نشر تلك الآراء السديدة والافكار القيمة .

المحرر